سيرة الماء والنار، رافع الناصري ومي مظفر
سرُّ العلاقة والهوية المشتركة ..

الدكتور ضياء خضير

تمثّل قراءة السيرة التي وضعتها مي مظفّر عن زوجها الراحل الفنان رافع الناصري تحت عنون (أنا ورافع الناصري، سيرة الماء والنار)، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2021)، تجربة فريدة في غناها وتنوعها على الصعيدين المكاني والزماني، والثيماتي التي جمعت فيه بين الفن التشكيلي بتنوعه المذهل لدى هذا الفنان، الذي مثل علمًا من أعلامه العراقية والعربية المميّزة، والكتابة الأدبية التي كانت الكاتبة نفسها الطرفَ الثاني فيها.

لم أكن أتوقع، في الواقع، أن أجد في الكتاب هذا النوع من الارتباط الحميم، وهذا التفصيل الدقيق، وهذا العمق، وهذا الإخلاص، والضبط في الكتابة، وموضوعها المتصل بالعلاقة الخاصة بين الفنان وفنه، وقرينته، وعلاقته مع الآخر، على هذا النحو.

كنتُ، خلال ذلك، أشعر بالأسف والأسى مع التقدم في قراءة كل صفحة جديدة من صفحات الكتاب، ورؤية ما فيه من صور حياة ولوحات، أن يختفي من حياة المرأة التي آمنت به وأحبته، ومن حياتنا العراقية والعربية مثلُ هذا الإنسان والفنان النادر، بشكل مبكر.

وقد مثّلت مي مظفر كامرأة وحبيبة وزوجة بالنسبة للفنان في حياته عنصر الماء في تلك المعادلة الجميلة على صعوبتها وتركيب عناصرها.. الماء الذي كانت وظيفته التخفيف من حدة النار التي كانت تشتعل داخل هذاالرجل القادم من تكريت العراق، والعائد من رحلة دراسية مبكرة وفريدة إلى الصين بدأها عام 1959، وليس إطفاء اللهب المقدس الذي ظلت شعلته الإبداعية متوقدة حتى اللحظات الأخيرة التي اخترم فيها المرض اللعين جسد رافع، ولكنه لم يستطع أن يمسَّ روحه خلال فترة المعاناة الطويلة التي اكتشف فيها وجود المرض في جسده وخضوعه لمراحل العلاج الطويلة المتعبة. بل إن مي كانت تسأل رافع أحيانا عن ناره المتقدة وحيويته وجنونه من أجل تحريضه، حينما ترى شيئا من الجمود أو البرود في اللوحة المنجزة. وهكذا، فرافع الذي كان يدعوها للدخول معه إلى منطقة (الجنون) الخطرة إذا أرادت الانضمام إلى عالمه، قد ورث منها شيئا من شحنات العقل والهدوء، فيما ورثت هي منه شيئا من الجنون الخلاق، في عدوى ثقافية وفنية متبادلة.

لقد ظلت طاقة الناصري العجيبة وإصراره على مواصلة العمل المبدع في كل الاتجاهات فاعلةً حتى الرمق الأخير في الرسم والتخطيط والتصوير، والحفر الطباعي الذي تخصص فيه، وأصبح بعد دراسته الطويلة له في الصين والبرتغال واحدا من أساتذته وصانعيه الكبار.

وتجربة رافع الناصري الفنية تستحق، كما جاء في تعليق لفاروق يوسف على كتاب مشترك لمي مظفر مع صباح الناصري شقيق رافع، أن يتم النظر إليها من جوانب كثيرة. "فهي تعبر بحق عن مزاج ثقافي ومعرفي أحكم سيطرته على مناطق جمالية تمتزج فيها لذة الإشراق الصوفي بكدح القبض على مادة الحياة المباشرة، حيث فكرة العيش في أرقى حالات متعتها وشفافيتها وأناقتها وصبرها. وهو ما أحاط تجريدية رسوم الناصري بنزعة إنسانية تميزت بالحرص على الارتقاء بعين المشاهد، ومن ثم تأهيل ذائقته البصرية وصولاً إلى إعادة تعريف مفهوم الرسم بما يصون رقيهما (المشاهد والرسم)".

تقول مي في أول كلمة خطتها في سيرة الماء والنار:

لقد "ترك رحيل رافع عن أرضنا فراغًا مهولًا ما كان لأي شيء أو أحد قدرة على انتشالي من هوته السحيقة سوى الحفاظ عليه حيّا معي".

وقد حافظت هذه المرأة العراقية النجيبة بالفعل على جانب من التراث العراقي الحديث بحرصها على الحفاظ على أعمال رافع الباذخة في صيغتها الفنية ومساحتها الروحية التأملية وتنوّع أساليبها التي كان لفن الرسم والكرافيك الصيني أثر فيها. حيث التقنية التصويرية الدقيقة على السطوح التي تستخدَم فيها ضربات الفرشاة المحددة للخطوط والألوان والتفاصيل بدقة شديدة وإيحاءات متعددة. وقد استخدم رافع أساليب مختلفة في هذا الفن تجمع بين الرموز والصور والحرف العربي لخلق تمثيل مرئي للأفكار ولصور.

ولم تفرط مي مظفر بالأساسي من أعمال زوجها الراحل، على الرغم من العروض السخية التي قدمت لها، مثلما قدمت لرافع من قبل في حياته، فصنعت من بيته في بغداد خلال وجودها معه فيه، ومحترفه السابق في البحرين، وفي عمّان، التي قضى سنواته الأخيرة فيها، متحفا يحتوي جلّ أعماله الفنية المتنوعة، وجعلت من كتابها الكبير هذا عنه وثيقة، وسِفْرا يحوي بين دفتيه اللوحة والصورة إلى جانب الذكريات المفصلة التي بدأت بقصة الحب الحذرة والصعبة بينها وبين رافع، على الرغم من الشغف والرغبة الواضحة المتبادلة من الطرفين منذ البدايات المبكرة لهذه العلاقة، حتى لحظة الاقتران والاتحاد، الذي صار فيه الاثنان واحدا في مشهد حياة وعلاقات إنسانية، وفنية وثقافية طويلة، امتدت ما يقرب من أربعين عاما، وغطت مساحة واسعة من الفعاليات والتنقلات المكانية بين العراق وبلدان عربية وأجنبية مختلفة.

كانت صورة رافع خلال ذلك هي التي تتصدر المشهد، فيما فضلت هذه المرأة الناقدة والشاعرة والقاصة وكاتبة الترجمة التي قال عنها المرحوم ناصر الدين الأسد مرة، حينما اطلع على سيرته التي وضعتها عنه، بأنها لم تكن تكتب، بل ترسم، أقول فضلت لصورتها أن تتراجع لتكون في خلفية اللوحة، إكراما للرجل الذي آمنت به وأحبته، فكرست حياتها للعناية به وبفنه ومرافقته في حلّه وترحال شرقا وغربًا، ومراقبة مشاريعه ذات الطبيعة العبقرية في آفاقها وطموحاتها التشكيلية. ثم كانت له في محنته ومحنتها الأخيرة معه الممرضةَ والطبيبة الآسية، والزوجة الحبيبة التي ما كانت تطيق الغياب عن زوجها وحبيبها ومثالها الفني والروحي والأخلاقي، لحظةً واحدة.

ولعلّ طبيعة علاقة الحب القلقة التي ربطتهما في بداياتها تلك أن تذكرنا، مع الفارق، بعلاقة كاتبة أخرى تحمل الاسم نفسه، مع كاتب ورسام آخر، هي مي زيادة وجبران خليل جبران، حين كتبت مي زيادة لجبران عام 1924 رسالة تقول فيها:

"لكني أعرف أنك محبوبي وأني أخاف الحب. إني أنتظر من الحب كثيرا، فأخاف ألا يأتيني بكل ما أنتظر، أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير".

فقد كادت هذه، كما قلت، أن تكون هي نفسها مشاعر كاتبتنا العراقية في علاقتها مع رافع في بداياتها الأولى، التي تسميها (مرحلة الكر والفر)، التي بحثت فيها كامرأة عن الأمان واليقين مع الرجل الذي اختارته، وأحبته ليكون بعد ذلك هو جائزتها الكبرى في الحياة، التي عرفت خلالها السعادة بتجلياتها المختلفة، كما تقول، ثم لتحتفظ به حيًا بعد رحيله عن طريق هذا الكتاب، وفي ما لا نعرفه من علاقة روحية خاصة تربط بين البشر المميزين في الموت والغياب، مثلما تربطهم في عالم الحياة.

كانت تلك المرحلة التي امتدت نحو سنتين قد اتسمت، كما تقول مي، "بالحلو والمر، بالأمل وبالتهديد، بالوصل والقطع. لم يكن رافع نموذجا أطمح له أو أتمناه، لكن نقطة الضوء التي حلت في نفسي ذوّبت كل صورة وتصور، وسلبت مني كل إرادة للتراجع".

ومثلما وصف كارلتون ليك قدرة فرنسواز جيلو على التذكر في كتابهما المشترك عن بيكاسو الذي ترجمته مي مظفر عام 1993 ببغداد، بمصطلح (الاستذكار الشامل) ، الذي يؤكد دقة كل ما قالته وما نقلته تلك المرأة من أقوال عن بيكاسو خلال سنواتها العشر التي عاشتها معه، يمكننا أن نرى، في المقابل، هذه الدقة، وهذا الشمول لدى مي مظفر فيما نقلته وما قالته عن رافع الناصري في هذا الكتاب، وفي غيره، خلال حياته وبعد مماته. ورغم استعانتها في كتابة الفصلين الأول والثاني من الكتاب ببعض اليوميات التي بدأت بتدوينها منذ بداية علاقتها مع رافع، فإن اعتمادها الأول كان على الذاكرة التي تقول إنها تتمتع بها حاضرة بكل قوة وبتفاصيل، لا يكاد يفلت منها أيٌّ شيء منذ طفولتها المبكرة.

لقد كانت عينُ رافع النهمة، كما تصفها مي، تلتقط كل ما هو مميز وغريب في حياته اليومية، أينما ذهب من أجل تحويله إلى خطوط وبورتريهات أو رسوم كاملة في لوحات. كما احتلت القصيدة الشعرية والملاحظة النثرية، ورسالة الشوق المبعوثة خلال سفر قصير أو طويل للسؤال عن الأحوال وحكاية التفاصيل، والصور الفوتوغرافية التي كان رافع مولعًا بها، والتخطيطات الآنية القادحة للذاكرة البصرية، احتلت كلها مكانًا توثيقيًا مهمًا في هذه السيرة، في إطار شامل من السرديات والروايات المتتابعة، التي تعبّر في مجموعها عن شهية فنان مفتوحة لالتهام الحياة، والاحتفاظ بنماذج وصور حية منها في ذاكرته وخزانته البصرية المرئية والمكتوبة، وعلى نحو يشعرك شعورا داخليًا مواربًا بشعور الفنان المبكر بأن النهاية قريبة، وأن لحظات الوجود على هذه الأرض ستبقى قصيرة مهما طالت،

وأنّ كل ما يريده فنانٌ حقيقي مغرم بالحياة مثل رافع الناصري، هو تسجيل شهادته الخاصة بأوسع مدى وطاقة ابداعية وجمالية ممكنة من التنوع والغنى والضبط؛ نعم، شهادته الخاصة على أنه عاش، وأن على هذه الأرض ما يستحق أن يُرى، وأن ما يتمّ اختياره للتسجيل والتصوير والكتابة عنه من شؤون هذه الحياة وشجونها، أيام نعيمها وبؤسها، سيُبقي على بصمته الشخصية، ودليله المتخلّف من ورائه مثل أقدام على الشاطئ، ليشير على أنه مرّ من هنا.

والناصري الذي يرسم كمن يكتب يومياته، كما يقول صديقه فاروق يوسف، يبدو كما لو كان يخوض حربه الخاصة في مقابل الحرب الأخرى التي انتزعته من بيته ووطنه، دون حساب للأرباح والخسائر. فقد كان المبدأ الأول بالنسبة إليه هو العمل الذي يضيف ويعمق (الرؤية الجديدة)، ويفتح نوافذ أخرى للأمل والتأمل البصري الذي يمكن أن يعطي لحياته كفنان معنى ودلالة. وخلال كل ذلك رأينا الكيفية التي كانت الأشعة السينية لهذا الرجل تخترق روح مي مظفر وعالمها الداخلي المراقب والصامت شيئا فشيئا، على نحو يمكن القول معه إن رافع قد شكل ذاتها الأخرى، مثلما شكلت له قرينه الأنثوي الذي يشعر بالاطمئنان إليه والثقة به، والعودة إليه والحوار معه، بحيث نستطيع أن نتحدث هنا عن هويتين تتجاذبان وتتفاعلان سوية مع الهويات الأخرى، كما لو كانتا هوية واحدة، حتى إذا كان بينهما حوار داخلي واختلاف في المواقف ليس من شأنه أن يجعلهما واحدا في كل حين.

كانت مي، كما يمكن القول، هي مرآة رافع الصافية التي يستطيع أن يتبين فيها ملامح وجهه وصورةَ أعماله المنجزة في حال كانت المرايا الأخرى مضببة، مقعرة أو محدبة، لا تكشف له عن الصورة والطريق بوضوح كاف.

" أحدّثه عن الجمال فيصغي، وتشع عيناه ببريق أخّاذ، فألامسُ روحه المتقدة، وأجده لينًا هادئًا بلا تكلف أو افتعال. تبادلنا الكثير من المعلومات عن ذاتينا.."

ومنذ البدايات الأولى لهذا العلاقة التي كانا يتبادلان فيها "المعلومات عن ذاتيهما"، كان الفنان المعتز بنفسه وكبريائه يعترف لمي أخيرا:

" - ما أشدّ حاجتي إليك..".

وأيضا "- أنت امرأة تعشق، وفكر متقد، وصديق مؤتمن.. "

ولذلك، لم يكن وجودها في كل ذلك المشهد التشكيلي والفكري الواسع والمركب، الذي يتجاور فيه الماء مع النار تجاورًا استثنائيًا، وجودًا طارئًا يقتصر على دور الراعي والمشجع الصامت، بل المشارك المثابر والمتبني والناقد، الذي يحاول كمتلقٍ ومرافق لمراحل العمل المختلفة حتى لحظة الاكتمال والعرض الأخيرة، أن يكونً الشاهد الأول الذي رأى، والذات الأخرى التي تنعكس فيها صورة العمل الفني، وما ينطوي عليه من معنى وقيمة.

وأخيرا، قد يكون من المناسب أن نستمع، بين كلمات أخرى، إلى كلمات هذه الرسالة المليئة بالحب والحنين تكتبها مي مظفر إلى حبيبها الغائب الحاضر معها في بداية

شروعها في تدوين هذه المذكرات التي تريد من خلالها أن تحتفظ برافع الناصري حيا رغم رحيله، والتي استغرقت كتابتها ست سنوات كاملة من 2014 حتى عام 2020:

"لوحدي أنا اليوم في عالم موحش إلا من روحك تظلّلني وتقيم معي أينما أكون. أقتات على ذاكرة تعيدك إليّ، فأراك تجلس قريبا مني، وكل منا يصغي لأصوات تتخفّى فينا. وهكذا، حديثي معك لن يتوقف، وصورتك لن تغيب، وسأستعيد حكايتنا هنا، كما وعدتك".